

ابن بكران الحموي

قاضي قضاء بغداد

٤٠٠ - ٤٨٨ هـ

محمد عدنان قيطاز

ربما كان ابن بكران الحموي المعروف بالشامي أول عالم تقدمه مدينة حماة الى بغداد حاضرة الدولة العباسية في القرن الخامس الهجري . فقد أسند اليه المقتدي بأمر الله ولاية قاضي القضاة ، وهي من الوظائف الرفيعة في الدولة ، ولا تسند عادة الا الى من كان عالماً جليلاً للخطر ، لا يخشى في الله لومة لائم . فمن هو ابن بكران الحموي ، وما هي مواقفه في القضاء ؟

يذكر أصحاب التراجم أن اسمه محمد بن المظفر بن بكران بن عبد الصمد بن سليمان الحموي ، وأن لقبه أبو بكر . وقد اقتصر ابن العماد الحنبلي على ترجمة مختصرة مرفوعة الى جده الأول بكران ، وبه شهر . في حين يذكر ياقوت الحموي أن ابن بكران كان معروفاً بالشامي ، ومن المرجح أن هذه النسبة شاعت بعد نزوحه من حماة الى بغداد وظهور أمره فيها (١) .

وقد جاء في تاريخ ابن كثير قوله « أبو بكر الشاشي » منسوباً الى شاش من بلاد الترك ، وهذا من تحريف النساخ وأوهامهم ، وعنه نقل عبد الله مصطفى المراغي - وهو مؤرخ معاصر - من غير تحقيق مؤكداً هذا التحريف بقوله « ولد بشاش » مخالفاً بذلك كل ما ذكره أصحاب التراجم (٢) .

□ حياته العلمية :

ولد ابن بكران في حماة سنة أربعمائة للهجرة أبان خلافة القادر بالله على بغداد وخلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي على مصر . ولم تكن بلاد الشام آنئذ مستقرة سياسياً ، فقد كانت مرة تحت نفوذ الفاطميين فيخطب فيها لخليفة مصر ، وتارة تحت نفوذ العباسيين

فيخطب لخليفة بغداد . وقد عاصر ابن بكران في بداية حياته أواخر أيام الفاطميين على بلاد الشام حيث خرجت حلب وأكثر بلاد الشام عن سلطتهم بعد وفاة الحاكم بأمر الله في مصر (٣) .

ويبدو أن أسرة ابن بكران كانت على جانب من العلم والمال ، مما أتاح له قدراً من المعرفة في علوم الدين والعربية منذ طفولته الأولى . ولما شب عن الطوق نهده إلى بغداد لاستكمال ثقافته الدينية ، وكانت بغداد في ذلك الوقت عاصمة العلم والدين والأدب ، ومركزاً حضارياً في الشرق العربي ينتج عنه طلاب المعرفة من كل مكان .

والمصادر التي بين أيدينا لا تحدد سنة رحيله إلى بغداد طلباً للعلم ، غير أن سنة وفاة بعض شيوخه البغداديين تجعلنا نميل إلى القول أن وفاته إلى بغداد كانت قبل سنة ٤٢٨ هـ أي بعد أن بلغ ابن بكران مبلغ الرجال ، وأصبح قادراً على حضور حلقات أهل العلم ، ومجالس العلماء الأفاضل الذين عرفتهم بغداد في النصف الأول من القرن الخامس الهجري . وقد ذكر أصحاب التراجم (٤) نفرأ من شيوخه أمثال :

- أبي عمر عثمان بن دوست (٥) .
- وأبي القاسم بن بشران (٦) .
- وأبي طالب بن غيلان (٧) .
- وأبي الحسن العتيقي (٨) .

وقد سمع من العتيقي كتاب الضعفاء لأبي جعفر العجلي ، وحدث به في بغداد فيما بعد . كما أخذ عن القاضي أبي الطيب الطبري ، وصحبه وانتفع به حتى وفاته سنة ٤٥٠ هـ وقد جاوز المائة .

ويذكر محمد بن عبد الملك الهمداني أن ابن بكران كان حافظاً لتعليقة القاضي أبي الطيب كأنها بين عينيه (٩) . ويروي ابن العماد الحنبلي أن ابن بكران قال للقاضي أبي الطيب وقد عُمِّر طويلاً : لقد مُتَّعت بجوارحك أيها الشيخ . . . إشارة إلى سلامة أعضائه وما يعتري أمثاله من الضعف والخور في حالة الشيخوخة المتقدمة . ولم يكن جواب الطبري إلا قولاً مقتضباً يخفي في ثناياه اعتداداً بما أوتي من قوة في الجسم وبسطة في العلم ومعرفة لحقوق الله : وَلِمَ لَا . . . وما عصيت الله بواحدة منها قط (١٠) .

ولما استكمل ابن بكران علمه الجَم على مذهب الإمام الشافعي ، وأصبح فيه إماماً ، تصدر مجالس الفقه والحديث في بغداد ، واجتمع حوله خلق كثير ممن وفدوا إليها يجتدون من جهابذتها ما كان ابن بكران قد اجتده من قبل ، وقد لازم مسجده خمساً وخمسين سنة يقرئ الناس ويفقههم (١١) ، فسمع منه العراقي والشامي والحجازي والأندلسي والأصبهاني والهمداني والسمرقندي ، ورووا عنه ما كان يرويه عن أشياخه

أولي الفضل . ويذكر أصحاب التراجم نفراً من طلابه الذين أخذوا عنه ، وأصبحوا أئمة من بعده أمثال :

- أبي علي بن سكرة (١٢) .
- وهبة الله بن طاووس (١٣) .
- واسماعيل بن محمد الاصبهاني (١٤) .
- وأبي القاسم ابن السمرقندي (١٥) .

وغيرهم كثير من أكابر أهل العلم . وقد جاء في كتاب الأنساب للسمعاني قوله : روى لنا عنه كثير بن سعيد بمكة وعبد الوهاب بن المبارك ببغداد (١٦) .

ومن الواضح أن اقامته في بغداد قد مهدت له سبيل الظهور والتفوق حتى بلغ صيته مجلس الخليفة المقتدي بأمر الله ، وعندما توفي قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغانى سنة ٤٧٨ هـ أشار أبو شجاع وزير المقتدي بولاية ابن بكران على القضاء ، ولكنه امتنع ، فما زالوا به حتى رضي ، وشرط أن لا يأخذ رزقاً ، ولا يقبل شفاعة ، ولا يغير لباساً ، فأجيب الى ذلك . وقد أثر عنه قوله : ما دخلت في القضاء حتى وجب عليّ (١٧) .

وجدير بالذكر أن للقاضي لباساً خاصاً به هو « الطيلسان » يميزه من سائر الناس ، وكان له راتب يقدر بحوالي خمسمائة دينار في الشهر ، وهو مبلغ رفضه ابن بكران تورعاً وتقوى ، في حين كان يلهث خلفه كثير من الطامعين ، واكتفى من المال بكرام بيت له لا يزيد عن دينار ونصف ينفقها على طعامه ولباسه ، ولم يكن طعامه سوى فتيت من الخبز في الماء مستغنياً بهما عن أطايب الطعام والشراب . أما لباسه فكان قميصاً من القطن الخشن وعمامة كتان ، يخلعهما في مجلس القضاء ويرتديهما بعد انقضائه . ويذكر محمد بن عبد الملك الهمداني أن ابن بكران لم يقبل من سلطان عطية ، ولا من صديق هدية ، وعاش حياته عفيفاً زاهداً ، محمود السيرة ، نقي السريرة (١٨) .

وقد عرفت حماة عدداً من القضاة الذين رفضوا أن يأخذوا على أحكامهم أجراً معلوماً من بيت مال المسلمين تذكر منهم : القاضي ابن رزين الحموي المتوفى سنة ٦٨٠ هـ (١٩) والقاضي شرف الدين البارزي المتوفى سنة ٧٣٨ هـ (٢٠) وبذلك يكون ابن بكران قد سنّ سنّة في الزهادة والتقوى لمن ولي القضاء من أهل حماة ، وأصبح قدوة في العفة والعدالة والورع .

□ من مواقفه القضائية :

أجمع أصحاب التراجم على عدالة ابن بكران ونفوذ أحكامه ، وجرأته في اقامة الحق وابطال الباطل ولو أدى الى غضب السلطان . ويذكر ابن النجار أنه كان يسوي بين الوضع الشريف في الحكم ، وقيم جاء الشرع من غير محاباة أو مداراة . كما يذكر ابن كثير في تاريخه أن فقيهاً فاضلاً من أهل مذهبه شهد عنده فلم يقبله ، فقال : لأي شيء ترد شهادتي

وهي جائزة عند كل حاكم الا أنت ؟ فقال له: لا أقبل لك شهادة ، فاني رأيتك تغتسل في الحمام عرياناً غير مستور العورة ، فلا أقبلك (٢١) .

وربما لجأ ابن بكران الى ضرب بعض المنكرين حيث لا بينة ، اذا قامت عنده قرائن التهمة حتى يقرّوا ، ويذكر أن في كلام الشافعي ما يدل على هذا ، وقد صنّف كتاباً في ذلك ، ونصره ابن عقيل (٢٢) امام الحنابلة في زمانه فيما كان يتعاطاه من الحكم بالقرائن ، واستشهد له بقوله تعالى « ان كان قميصه قد من قبْل » (٢٣) .

وقد حدث مرة أن جاء الخليفة المقتدي بأمر الله الى مجلس ابن بكران وادّعى شيئاً ، وقال : بينتي فلان والمشطّب الفرغاني الفقيه . فقال ابن بكران : لا أقبل شهادة المشطّب لأنه يلبس الحرير . فقال الخليفة: السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك يلبسانه . فأجاب ابن بكران : ولو شهدا عندي ما قبلت شهادتهما أيضاً (٢٤) . فما كان من الخليفة الا أن غادر مجلس الحكم غاضباً محنقاً ، مما أثار حول ابن بكران عاصفة من النقد والفضيب ، وأرجف به المرجفون ، وألصقوا به الأحاديث الملققة ، بل ان الخليفة العباسي منع الشهود من حضور مجلسه ، فاضطر ابن بكران الى التزام بيته .

ويبدو أن خصومه أشاعوا عزله عن القضاء ، فأعلن ابن بكران رفض العزل حتى يتحقق عليه الفسق . وأتاه القاضي أبو يوسف القزويني الممتزلي مستغلاً سخط الخليفة قائلاً : ما عزلك الخليفة ، انما عزلك النبي ﷺ . قال ابن بكران : كيف ذلك ؟ قال القزويني: لأنه قال لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان ، فانت طول عمرك غضبان .

ولكن ابن بكران لم يحفل بسخط الخليفة المقتدي بأمر الله ، وسخط من حوله ، وظل ثابتاً ملازماً للحق ، لا يخشى في الله لومة لائم . حتى انقاد الخليفة لحكمه ، وخلع عليه تسليّة وترضية ، واستقام أمره بعد ذلك (٢٥)

□ آثاره العلمية :

لم يذكر أصحاب التراجم أية آثار علمية لابن بكران ، غير أن ابن النجار يشير الى كتاب مفرد يحمل اسم « البيان في أصول الدين » (٢٦) كما أشار اليه اسماعيل باشا البغدادى (٢٧) .

ومن المرجح أن ابن بكران كان منصرفاً الى حلقات الدرس وجلسات القضاء ، لا يصرفه عنهما صارف ، وهذا ما يجعلنا نقول بندرة مؤلفاته . على أننا لا نستطيع أن نقطع بذلك ، لأن هجمة المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ لم تبق في مكتباتها من تراث العرب الضخم الا القليل . ومهما يكن من أمر فان ابن بكران لم يأل جهداً في ايصال المعرفة الى طلابها القادمين الى بغداد من مختلف الأصقاع والأمصار كما رأينا من قبل .

□ أقوال العلماء فيه :

- تحدث العلماء عن ابن بكران ، وأثنوا عليه بما هو أهل له :
- قال ياقوت الحموي : كان من صالحى القضاة ٠٠٠ وكان لا يخاف في الله لومة لائم (٢٨) .
- وقال ابن السمعاني : كان ورعاً زاهداً متقناً ، جرت أحكامه على السداد (٢٩) .
- وقال أبو علي بن سكرة : لو رفع مذهب الشافعي أمكنه أن يمليه من صدره (٣٠) .
- وقال الحافظ الذهبي : كان من أزهد القضاة وأورعهم وأتقاهم لله ، وأعرفهم بالمذهب (٣١) .

□ وفاته :

بقي ابن بكران في ولاية القضاء عشر سنين ، عاصر خلالها طرفاً من خلافة المقتدي ، وخلافة ابنه القائم بأمر الله ، وخلافة المستظهر بالله ، ومات في أيامه سنة ٤٨٨ هـ باتفاق أصحاب التراجم ، وعمره ثمان وثمانون سنة ، ودفن في بغداد بالقرب من ابن سريج (٣٢) . وطويت بموته صفحة مشرقة من صفحات القضاء الاسلامي المجيد في ظل الدولة العباسية .



□ حواشي البحث :

- ١ - معجم البلدان ٣ : ٣٣٦ ، طبقات الشافعية ٣ : ٨٣ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ . ويذكر صاحب الانساب جده الرابع باسم « سلمان » انظر ٤ : ٢٢٩ .
- ٢ - البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ ، الفتح المبين ١ : ٢٦٨ .
- ٣ - تاريخ الخلفاء : ٤١٥ .
- ٤ - الانساب ٤ : ٢٢٩ ، طبقات الشافعية ٣ : ٨٣ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ ، معجم البلدان ٣ : ٣٣٦ ، العبر ٣ : ٣٢٢ .
- ٥ - أبو عمر البغدادي : عثمان بن محمد بن يوسف بن دوست صدوق المتوفى ٤٢٨ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٣٨) .
- ٦ - أبو القاسم بن بشران : عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران بن محمد الأموي مسند وقته ببغداد : توفي سنة ٤٣٠ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٤٦) .
- ٧ - أبو طالب بن غيلان : محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان الهمداني البغدادي البزاز مسند العراق ، توفي سنة ٤٤٠ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٦٥) .
- ٨ - أبو الحسن العتيقي : أحمد بن محمد بن أحمد البغدادي التاجر السفار ، المحدث ، توفي سنة ٤٤١ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٦٥) .
- ٩ - طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ .
- ١٠ - شذرات الذهب ٣ : ٢٨٤ .
- ١١ - البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ .
- ١٢ - أبو علي بن سكرة هو الحافظ الكبير حسين بن محمود بن فيرة بن حيون الصديقي السرقسطي الاندلسي ، سمع ببغداد ودمشق ، وعاد الى بلاده بعلم جم ، توفي سنة ٥١٤ هـ (شذرات الذهب ٤ : ٤٣) .
- ١٣ - هبة الله بن أحمد بن عبد الله بن طاووس ، أبو محمد البغدادي امام جامع دمشق ، توفي سنة ٥٣٦ هـ (شذرات الذهب ٤ : ١٤) .

- ١٤- الحافظ الكبير اسماعيل بن محمد بن الفضل ، أبو القاسم انتيمي الطلحي الأصبهاني ، امام في التفسير والحديث واللفظ والأدب ، عارف بالمتون والأحاديث ، توفي سنة ٥٣٥هـ (شذرات الذهب ٤ : ١٠٥) .
- ١٥- أبو القاسم اسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث المعروف بابي القاسم ابن السمرقندي . توفي سنة ٥٣٦ هـ (شذرات الذهب ٤ : ١١٢) .
- ١٦- الأنساب ٤ : ٢٢٩ .
- ١٧- طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ .
- ١٨- تاريخ التمدن الاسلامي ٢ : ١٤١ بالإضافة الى المرجعين السابقين .
- ١٩- تاريخ حماة : ١٣٥ .
- ٢٠- المرجع السابق : ١٤٤ ، وفي مجلة التراث العربي - العدد ١٨ دراسة مفصلة عن حياته العلمية وآثاره .
- ٢١- طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ ، البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ .
- ٢٢- أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة ومؤلف كتاب الفنون الذي يزيد على أربعمئة مجلد ، كان اماما مبرزاً ، خارق الذكاء ، عديم النظير . توفي سنة ٥١٣ هـ (شذرات الذهب ٤ : ٣٥) .
- ٢٣- البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ .
- ٢٤- طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ ، وفي البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ لا يرد ذكر الخليفة ، ويكتفي برد شهادة المشطب بن أحمد القرغاني .
- ٢٥- طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ .
- ٢٦- شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ .
- ٢٧- هدية العارفين ٢ : ٧٦ .
- ٢٨- معجم البلدان ٣ : ٣٣٦ .
- ٢٩- طبقات الشافعية ٣ : ٨٣ - ٨٤ .
- ٣٠- المرجع السابق .
- ٣١- العبر ٣ : ٢٢٢ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ .
- ٣٢- طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ وفي البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ ابن شريح ، وما ذكره صاحب الطبقات هو الأشهر .

□ المراجع :

- ١ - الأنساب : عبد الكريم بن محمد السمعاني - تحقيق : عبد الرحمن بن يحيى العلمي اليمني - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٨٠ .
- ٢ - البداية والنهاية : الحافظ ابن كثير الدمشقي - الطبعة الخامسة بيروت ١٩٨٣ .
- ٣ - تاريخ التمدن الاسلامي : جورج زيدان - الطبعة الثانية - مصر .
- ٤ - تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي - تحقيق : محيي الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٦٤ .
- ٥ - تاريخ حماة : أحمد الصابوني - الطبعة الثانية - حماة ١٩٥٦ .
- ٦ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي - طبعة دار المسيرة (مصورة) - بيروت ١٩٧٩ .
- ٧ - طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي - الطبعة الأولى مصر .
- ٨ - العبر في خبر من عبر : الحافظ الذهبي - تحقيق فؤاد سيد - الكويت ١٩٦١ .
- ٩ - الفتح المبين في طبقات الأصوليين : عبد الله مصطفى المراغي - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٧٤ .
- ١٠- اللباب في تهذيب الأنساب : عز الدين بن الأثير الجزري - طبعة دار صادر بيروت .
- ١١- معجم البلدان : ياقوت الحموي - الطبعة الأولى - مصر ١٩٠٦ .
- ١٢- هدية العارفين : اسماعيل باشا البغدادي - طبعة مصورة عن طبعة استانبول - بيروت ١٩٥٥ .

□ الدوريات :

- ١ - مجلة التراث العربي : العدد ١٨ كانون الثاني ١٩٨٥ (مقال : شرف الدين البارزي - حياته العلمية وآثاره - محمد عدنان قيطاز) .